الفصـل الرابع

القديم والجديد فى التوجيه

القديم والجديد فى توجيه الدين :

هل هناك قديم وجديد فى التوجيه ؟

هل توجيه الدين قديم .. وتوجيه العلم جديد ؟

اذا تحدثنا عن الدين هنا ، فهو رسالة الله الى البشرية منذ نوح الى محمد عليهما الصلاة والسلام .. هو الاسلام .. لأن رسالة كل رسول كانت الاسلام ... وكل كتاب لله هو .. كتاب الاسلام :

((ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم))(١) .

تسمية هذا الكتاب مرة بأنه : التوراة .. ومرة بأنه : الانجيل ... وثالثة بأنه : القرآن .. لا تغير من اسم الدين .. ولا من جوهره .

وقد كان القرآن آخر صورة لرسالة الله .. فهو أقرب لدى البشرية فى التعبير عن دين الله .

والاسلام ، كدين الله ... يصور اذن من قرآنه ويقيم من التعاليم التى سجلت به ، ولا يدخل فى اعتبار هذا التصوير ، ولا فى التقييم ... تولة انسان عنه ، ولا فهمه لنصوصه .. ولا استنتاجه لأحكامه .. كما لا يدخل فيه : مذهب طائفة ، ولا اتجاه فرقة من فرق المسلمين .

---

(١) آل عمران : ١٩

والقرآن ، كآخر كتاب لدين الله ، أن وجد فيما جاء فيه كثير أو قليل مما جاء فى التوراة والانجيل قبله .. فليس لأن الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام تعلم على نفر من أهل الكتاب ... أو نقل بحكم تأثير المخالطة فى الجوار بعض ما لهم ، وذكره فيما سماه : القرآن .... ونسبه الى الله .. كما يقول بعض المستشرقين !!

.... ولكن لأن ما جاء فيه : هو رسالة الله التى هى الاسلام ، والتى هى لم تتغير فى أصولها ولا فى اسمها .. فهو مصدق لما فى التوراة ، والانجيل قبله .

فان وجد هناك اختلاف بعد ذلك بينه وبين ما أنزل على موسى وعيسى ، عليهما السلام من بعده .. فيرجع هذا الاختلاف : الى صنعة الانسان فيما أنزل عليهما ، استمساكا بزعامة ، أو احتفاظا بجاه فى المجتمع .

والاسلام ، كدين بهذا المعنى .. ليس فيه قديم ، ولا جديد .. نعم قد كانت له رسل مختلفة ، ودعوا برسالته فى أوقات متتالية ، وبين أقوام من البشر عديدة ، ولكن ذلك لم يخرجه عن وحدته فى أصوله العامة .. التى جاءت وفقا لخصائص الطبيعة الانسانية ، من .. حيث هى طبيعة انسانية .

ان الذي أوحى بالاسلام .. هو الله .. صاحب الكمال المطلق .

ومعنى أن الله صاحب الكمال المطلق ان كماله لا يتطور ، ولا ينتقل من مستوى .. الى مستوى . اذ لو كان على هذا النحو لكان كمالا نسبيا .

.... لكان ناقصا بالأمس .. بالنسبة لما له فى اليوم .. وما له فى اليوم ناقصا عما له فى الغد .. وهكذا .

.... معنى الكمال المطلق : أن الله له الكمال لذاته .. وليس مكتسبا ولا ممنوحا من موجود آخر . فكماله على وضع لا يتغير .. ملازم للذات فى وجودها .

وصاحب الكمال المطلق : علمه علم يقينى ، ليس بالأمس وهما .. واليوم ظنا .. وغدا علما .. تصقله التجربة والاختبار !!

.... علمه فوق الزمن ، وفوق محدودية العقل الانسانى ، وفوق التجربة والاختبار .

... علمه من كماله . وهدايته للناس فى رسالته لذلك .. هداية لاتقبل الخطأ : سواء فى تعاليمها ، أو فى مساوقتها للطبيعة البشرية التى جاءت لها .

وقصة القديم والجديد فى شىء لا تتم الا اذا كان هذا الشىء خاضعا لسنة النمو والتدرج والتطور ... الا اذا كان يعيش فى الزمن وليس فوقه .. وكان فى وجوده يقبل التأثر أو التفاعل .. وليس بمنأى عنهما .

ومن أجل أن طبيعة الانسان تختلف فى ذلك عن ذات الله .. كان علم الانسان قابلا للتطور .. بينما علم الله لا يتغير . واذن ليس فى دين الله : جديد ، وقديم .. هو هو .. لا يتغير . وكتابه هو هو ، لا يتغير . ومساوقته للطبيعة البشرية هى هى ، لا تتغير . وما جاء فيه من توجيه لتلك الطبيعة هو هو ، لا يتغير .. وما اقترن بالهداية بدين الله من صلاح واصلاح ، ونجاح وسعادة للانسان .. هو هو ، لا يتغير .. وما اقترن بالانحراف عن تلك الهداية من تردد وقلق ونزاع .. هو هو ، لا يتغير .

ان الذى يتغير هو الانسان ... هو الفرد أو المجتمع .. يتغير انسان الدين فى فهمه للدين والعمل به ... ويتغير الانسان فى موقفه من الدين ، فيؤمن به أو ينكره ... ويتغير الانسان فى تقييم ذاته ، فيعلو الى مكان الله ، أو ينزل فيه الى مكان الحيوان ... ويتغير الانسان فى فلسفته ، فيبرر هواه وما يشتهيه ، ويبرر جموحه وانحرافه ، وظلمه وعدوانه ... أو يعود بنفسه الى العزلة ويدعو اليها ، هربا من تحدى مشاكل الحياة ، أو ترفعا بنفسه عن أن يزج بها فى زحمتها .

... دين الله كون مع الانسان ، تاريخ البشرية ... هو يعيش مع الانسان ... ولن ينتهى من حياته .

وتاريخ البشرية :

يمثل الفترات التى يقترب فيها الانسان من الدين ،

... والأخرى التى يبتعد فيها عنه .

... وسيظل يؤدى دوره على هذا النحو .. لأن هذا التاريخ يدور فى دائرة ، ولا يتحرك فى خط .. الى غير نهاية .

لو أن الانسانية تختلف فى طبيعتها على ممر السنين ، لاختلف تاريخها فى حركتها . ولكن طبيعتها هى الطبيعة الحيوانية العاقلة .. طبيعتها الطبيعة المصارعة ، التى تحتم الصراع من ذاتها ، بسبب تكوينها ، وبين الطرفين اللذين تتكون منهما ، وهما : الغريزة ... والعقل .

... ولو أن الطبيعة الانسانية تتطور الى غرائز خالصة ، أو الى عقل خالص لتبع تاريخها مراحل هذا التطور ... ولبدا فيه التغير بحيث لا يكون تشابه فى حياة الانسان فى مرور الزمن عليها . ولكن « التشابه » هو محور تاريخ الانسان . فهو اذن يدور وتتكرر مظاهره .. واذن : فما كانت صلاحيته

للتوجيه الانسانى لذاته .. باق فى صلاحيته مع الطبيعة البشريةلذاتها . ويوم تعود اليه تهتدى به .. ويوم تبتعد عنه تشقى بالبعد عنه .

... لا جديد ، ولا قديم فى توجيه الدين اذن . الجديد والقديم فى عرض الانسان لمبادىء الدين . كالفلسفة : ليس فيها قديم ، ولا جديد ، الا فى تصوير مشاكلها ، وأسلوب عرضها . فطالما كانت الفلسفة هى محاولة شرح مشاكل الوجود والحياة الانسانية . فهى من حيث هذه المشاكل لا تختلف . والذى يحدث ظاهرة الاختلاف هو الفيلسوف ، أو المدرسة الفلسفية الخاصة التى تتبنى اتجاها خاصا فى الحياة ، أو تقع تحت تاثير هذا الاتجاه الخاص ، فتصور المشكل أو تعرضه بصورة . تختلف عن عرض فيلسوف آخر او مدرسة أخرى .

ان الدين كان من القضايا التى تعرضت لها الفلسفة بالشرح .. منذ أن عرف للانسان تفكير فلسفى . ولم يزل حتى الآن من مشاكلها .. وسيظل مشكلة تعالجها الفلسفة اليوم وغداً .

... تعرض الفكر الاغريقى للدين ، وتأثر به فى عرضه . ولا يختلف أرسطو عن أفلاطون فى ذلك .. الا فى أسلوب العرض نفسه .

... وتعرض فكر القرون الوسطى له وظاهر فى تأييده ، وأعنن حجيته . وامعانا فى الابقاء على هذه الحجية ، منع أن يخوض فى الفلسفة غير رجال الدين ، وأن يعرض الدين غير رجال الفلسفة الدينية .

... وتعرض الفكر الوضعى .. « أوجست كونت » ، فى أوائل القرن التاسع عشر .. للدين وكان فى عرضه له .. انكار لأساسه ، وهو وجود الله .. ودعوة الى الايمان بالوجود الوضعى وحده ، واستمر للفكر الوضعى أثره فى الفكر الماركسى ، وتكون كنتيجة له .. توجيه عدائى للدين ، أو الحادى يكفر بدين معين ، ويؤمن بدين آخر ... ينكر دين الكنيسة ، ويكفر به .. ويؤمن بدين الانسانية والجماهيرية .. وينكر رجال الدين ، ويؤمن بعلماء الطبيعة ، وعلماء الاجتماع ... ينكر الروحية ، ويشتد ايمانه بالاقتصاد .

فقضية الدين كانت مشكلة من مشاكل الفلسفة .. وظلت كذلك ووقف منها الفكر الفلسفى فى تصوره للدين ، وفى عرضه اياه .. مواقف عديدة ومتقابلة . فما الذى حمل الفكر الوضعى على معارضة الدين وانكار اعتباره .. بينما الفكر الاغريقى ، وفكر القرون الوسطى .. تأثر كل منهما باعتباره ؟

هل بدائية البشرية فيما قبل الفكر الوضعى ، ويقظتها فى عهده .. كلتاهما : أوحت بما أوحت به .. من تصور .. ورأى فى الدين ؟

هل « العلم » كان السبب فى ذلك ؟

... هل التخلف فى العلم حمل على موقف منه .. والتقدم فيه حمل على موقف آخر ضده ؟ ..

اذا كان تقدم العلم على عهد التفكير الوضعى حمل على انكار دين الكنيسة .. فكيف يوحى بوضع دين آخر .. هو دين الانسانية ؟

أليست طبيعة الدين كدين ، وهى الايمان .. تتنافى مع غاية العلم .. وهى : الخضوع للتجربة وحدها ؟

... كيف يعرف العلم .. الايمان .. والنفاق فى دين الانسانية ؟

... كيف يدخل « الاحساس » فى الانسان .. الى مجال التجربة ؟

أليست البواعث الشخصية هى التى حملت صاحب الفكر الوضعى ، والمتبنين له من بعده ، على انكار دين الكنيسة ، حتى تهتز سلطتها ووجودها .. ويستقل **العلماء** وحدهم بالمجتمع وقيادته ؟

... انها نظرة الانسان التى تتفاعل مع عوامل كثيرة ، ومن بينهما انفعالات : الكره والبغض ، والمحبة والتواد ... انها نظرة الانسان المحدود الذى يخضع للظروف التى عاش فيها ، ويستحيل عليه أن يرتفع فوقها .

... ان الفكر الوضعى لقى رواجا فى القرن التاسع عشر ، وما زالت الفلسفة الماركسية تروج له فى القرن العشرين . لأنه صادف ظروفا كانت تحتم التغيير فى المجتمع ... ظروف الخلاص من وضع قائم ، الى وضع جديد ، ثم صادفت الدعوة اليه ملابسات تميل ببعض الطبقات فى المجتمع الى عدم التصديق بالعدل الالهى ، الذى تحكى عنه الكنيسة .. بينما هى تساند المغتصبين لحقوق الانسان ، والمعتدين على سيادة العدل .. احتفاظا بالجاه ، وابقاء على ممارسة السلطة فى الحكم .

... ان الفكر الوضعى يبشر بعلم الاجتماع ، وبعلماء الاجتماع فى تنظيم حياة المجتمع ..

أية مدرسة من مدارس علم الاجتماع .. هى التى ستقوم بهذه المهمة؟.

طبعا : انه الاتجاه الاستقرائى الطبيعى العلمى الفردى .. وهو اتجاه « كونت » .. « اسبنسر » .. وهو الاتجاه الذى يقوم على : أن الظواهر

الجتماعية نتيجة للتأثيرات المتبادلة بين الأفراد ، كوحـــدات مســـتقلة ... وليس « الاحساس الجماعى » اذن الا احدى الظواهر لهذا التأثير المتبادل !.

وهذا الاتجاه يرى أن الأحداث أو الظواهر النفسية فى الانســـان .. هى تابعة فى وجودها لطبيعته المـــادية .. وأن التغير المـــادى لديه يصحبه تغير نفسى .. ولا يرى العكس : كالاتجاه الســـيكولوجى .. فى أن التغيير النفسى .. يتبعه التغيير المـــادى .

ومن هنا تأسيسا على هذا الاتجاه : وجود الجانب العقلى فى الانسان .. متأخر عن الجانب المـــادى فيه .. ومتأثر به ، فى نشاطه وتطوره ... والمستويات الاقتصادية فى المعيشة هى التى تحدد مستوى تفكير الانســـان ونوعه .. كما أعلنت المـــادية المـــاركسية التاريخية الدياليكتية .

ان هذا الاتجاه المـــادى فى الخلق والايجاد ، والتأثير ، لا يترك اذن الفرصة لأمر عقلى أو نفسى يحدث أثرا نفسيا آخر ، أو ماديا . فكيف بعـــد ذلك يطلب « كونت » صاحب هذا الاتجاه من الايمان بدين الانسانية .. ان يحرك « الاحساس الجماعى » فى الأفراد .. أو ينشئه ، والايمان أمر نفسى خالص ؟

ان العلم فى نظر كونت ، وهو علم الاجتماع بصفة خاصة .. كفيـــل بتنظيم المجتمع فى علاقات أفراده بعضهم ببعض ، بحيث يكون أشبه بالكائن الحيوانى الذى أعد من الطبيعة بأجهزته المختلفة للحركة المعاونة !

... والدين ، وهو دين الانسانية فى نظره .. كفيل بتحريك الوجدان ، وبحدوث التفاعل النفسى بين الأفراد ، فيما سماه : بالاحساس الجماعى .

لماذا يشذ الوجدان ، وهو كالعقل فى الانسان .. فى تحركه عن أن يكون ظاهرة لأمر مادى ، يسبقه فى الوجود ؟

.... وكذلك الشأن مع السلوك الأخلاقى وخضوعه للمستويات المادية للمعيشة التى يعيشها الانسان .. هل سلوك المترفين فى المعيشة هو السلوك الانسانى المثالى .. وسلوك الحفاة هو السلوك الردىء ؟ .

.... هل القرصنة وقطع الطريق ، ومزاولة السرقة .. ظواهر نفسية سلوكية ، يحدثها حتما .. مستوى الضيق والحاجة فى معيشة الانسان ؟

... هل من المحتم اذن أن يكون سلوك الطبقة الكادحة ، وهى التى عاشت تحت ضغط الحاجة .. فى الحـــكم اذا ما باشرته سلوك الطغـــاة المستبدين ؟ فالحرمان أو الضيق قد أكسبهم قسوة .. وأعد نفوسهم للحقد ؟

ان هذه الأسئلة ومثيلاتها تثير : ما اذا كانت الفلسفة الوضعية نفسها كانت « رد فعل » لأوضاع فى المجتمع الأوربى .. قبل أن تكون فكرا تجرد عن احساس الضيق وانفعال البغض ... وتجرد عن الوقوع تحت تأثير ارادة التغيير ؟

وما فى المجتمع البدائى يخضع تفكير الانسان ، ووجدانه وسلوكه ، فترة ما أو فى بعض الفترات ، كما يخضع المجتمع فى علاقاته .. الى الجانب المادى فى مستوى المعيشة ووسائل تحصيلها . ولكن المجتمع الحضارى ، وقد تكونت لديه مثل وقيم يختلف من أجلها ، ويقاتل فى سبيلها ... أليس من اليسير اغماط شأن هذه المثل والقيم ، وانكار تأثيرها فى الظواهر العقلية والنفسية لدى الفرد وفى المجتمع بجانب العامل المادى ؟

... ربما الطفل فى مرحلة طفولته يتأثر فى سلوكه وفى أحاسيسه ، بدنياه المادية وحدها ... أو بالعوامل المادية التى تغريه ! :

فثدى أمه ... يثير توده اليها ،

وعنايتها بأمر نظافته .. يقربها الى نفسه أكثر من والده ،

واللعبة ذات اللون الزاهى تحمله على الابتسامة والحركة بيديه ورجليه، املا فى الحصول عليها ،

والحيلولة بينه وبين الاقتراب من نار الموقد تجعله غاضبا ومخاصما .. وهكذا ...

ولكن حتى فى مرحلة المراهقة ، لماذا يميل الانسان الى التضحية ويسعى الى البطولة ؟ . أى شىء مادى يدفعه الى ذلك ؟

أليس لأنه يريد أن يكون متميزا فى فرديته ؟

أليس لأنه يبغى تاريخا ، ويعشق مثلا عليا ، يسعى الى البطولة والتضحية فى سبيل تحقيقها ؟

أليس لأنه أدرك المثل العليا فى مجتمع يرددها ، ويود أن يكون واحدا من أصحاب المثل ... بتحقيق بعض نماذج البطولة والتضحية ؟

وبموقف الفكر الوضعى من الدين لم يغير موضوعه ، ولم يغير من قيمته الذاتية فى التوجيه ... ولم يصب الا صنعة الانسان حوله ... ومحاولته استخدامه كوسيلة لدنيا ، وليس كغاية تتحقق معها غاية الانسان من وجوده على هذه الأرض .

وهنـــا بقى توجيه الدين الذاتى .. ليس فيه قـــديم وجديد .. وبقيت صلاحيته الدائمة ... ليست لجيل دون جيل .

.. العلم هو الذى يتطور ، وليس الدين :

أما العلم — وهو أثر للانســـان لاشك ... فيخضع لســـنة الحيـــاة الانسانية ... يتخلف بتخلف المجتمع الانسانى فيه ... ويتقدم بتقدم المجتمع والانسان فيه .

... العلم هو المعرفة التى يحصلها الانســـان عن الوجود ... ومن حركته فيه ... وكشفه عن جوانبه .. وقد ظل الانسان فترة يتعلم ، ويتلقن من الكهان ورجال الدين . ولا نقصد بالدين هنا الاسلام الذى هو رسالة الله منذ أرسل رسوله به الى الناس .. وانما الدين هنا هو الاتجاهات الاعتقادية التى تكونت بفعل عوامل البيئة وأحداثها ... والتى لعبت فيها **الصدفة** ... دورا رئيسيا فى نشأتها .. وقوة الاعتقاد فيها .

... هى تلك الاتجاهات التى يخضعها علماء الاجتماع الى التطـــور وقانونه .. ويجرون عليها مراحل التغيير من : البدائية .. الى ذات المستوى الرفيع . ويرى أكثر هؤلاء العلماء : أن الدين السماوى يصور المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الدين .. كدين !

... وليس هناك من صلة بين هذه العقائد ، وبين الدين السماوى .. الا المشاركة فى معنى الايمان والاعتقاد .

... هى تلك العقائد التى تصور الوثنية .. وتحكى عن تعدد الآلهة .. وتسوى بين الذكر والأنثى فى مجال الألوهية ، كما تسوى بين الاله والانسان فى أنه : يجوز على الاله ما يجوز على الانسان : من اكل وشرب .. وزواج ونسل .. وموت وحيـــاة .. وتردد بين الفرح والألم ... والانفعـــــالات المختلفة ... الخ .

... كان كهان هذه العقائد المحلية يلقنون الانسان ، باسم الاله .. ما لديهم من صورة عن الحياة والوجود ، وعن مستقبله ومصيره . وما يلقون به اليه من تصورات ... **تسلم من الوهم ، والظن والخيال .**

... وعاش الانسان جامدا لا يتحرك الا باشارة الكاهن أو رجل الدين ، أو يسترشد عن طريقه بمواقع النجوم ، ومنازل القمر والشمس . وقد كانت الكواكب تعبد أيضا ، كما كان يعبد كثير من الكائنات المحسة على الأرض .. حتى الحيوان والانسان .. كان يخضع له الانسان خضوع العابد المتوسل !

... ودافع العبادة كان يومئذ : يتمثل فى الرغبة ، والخشية .. الرغبة فى المنفعة .. والخشية من الضرر والأذى . وصورة العبادة كانت : التقرب بالقرابين المختلفة ، مما يشتهيه الانسان عادة ، وينعم بتناوله .. حسب عرف البيئة وتقاليدها .

واستمر الانسان فى الطاعة الى الكاهن ، وفى الارتباط بالكواكب فى حياته الى أن فتش بنفسه عن طريق عقله فى : « ماهية » الوجود والحياة .. وفى كنه الطبيعة وما وراء الطبيعة .. فكانت الفلسفة فى جانب الدين .. وكان الفيلسوف فى جانب الكاهن .

ثم التقت الفلسفة مع دين الله ، بعد دين الكهنة .. وبانه السموات والأرض فى كتابه .. بعد الكواكب والجبال والأنهار والنار والصحراء والحيوان والانسان .. كل فى محيطه الخاص به .. واتصلت به فى وفاق .. أو فى خصومة . وفى ايمان .. أو كفر به .

ومن عقائد الكهان ،

ومن فلسفة الانسان ،

ومن دين الله ،

... تكونت معرفة الانسان فى تاريخها وتطورت فى : كمها وكيفها ... نمت وزادت فى الكم ، وصفت وتحسنت فى النوع . وزيادتها فى الكم جعلها فروعا مختلفة . وصفاؤها فى النوع قربها الى اليقين .

.... وهى فى أصلها : ان رجعت فى مصادرها الى : دين ، وفلسفة . فهى بعد تطورها ، انبثق عن الفلسفة ما أخذ اسم **العلم** وتشعب الى علوم كثيرة . وقوام استحقاقه لهذا الاسم .. خضوع موضوعه للتجربة والاختبار ، أو تمحض قضاياه للعقل وحده . ودخل فى ما صدق العلم بهذا المعنى : العلوم الطبيعية التجريبية .. والعلوم الرياضية .

.... ولأول مرة فى تاريخ المعرفة الانسانية يدخل « **كونت** » علم الاجتماع ضمن العلوم الطبيعية ، ويتحدث عن **الاشتراكية العلمية** التى قصد منها تنظيم حياة المجتمع على أساس من نظرة علم الاجتماع وقوانينه ، التى تعتبر نهاية العلم وثمرته .

.... وكلما كانت وسائل التجربة ، ومعايير الاختبار دقيقة ... كلما كانت نتائج التجربة والاختبار أدخل فى مفهوم العلم .. وكلما كانت خطوة فى طريق التقدم العلمى .

وبهذا ترد فى المعرفة الانسانية بداية : هى الوهم أو التخيل فى تصور الوجود .. وتدرج من هذه البداية ، باستخدام العقل ثم معه التجربة ، متطلعا الى مستوى اليقين . وبهذا تختلف معرفة اليوم .. عن معرفة الأمس ، وبمقتضى منطق التطور .. ستختلف معرفة الغد عن معرفة اليوم .

ان الذى جعل معرفة اليوم عندما سماها الانسان **علما** تختلف عن معرفة الأمس التى كانت تعرف بدين الكهنة ، أو بفلسفة الفلاسفة .. هو الذى يحتم اختلاف المعرفة فى الغد .. عن المعرفة فى اليوم .

فالانسان اذا كان متطورا منتقلا من مرحلة الى أخرى ، ولا يرجع فى انتقاله الى مرحلة سابقة ، وانما يضيف مرحلة جديدة الى ما خلف فى تاريخه .. فلابد أن لا تقف معرفته على هذا النحو .. عند مرحلة ، ولا ترجع الى مرحلة مضت .. بل تنتقل كذلك الى مرحلة جديدة .

والمرحلة الجديدة فى المعرفة .. هى مرحلة القرب من **اليقين** والتنوع . لأن اليقين هو هدف التصفية العلمية . والتنوع نتيجة لازمة لكثرة الاختبارات وتعدد التجارب . وتتم هذه التصفية فى مجالات أخرى للعلم .. بعد استخدام التجربة والاختبار فيها ، كمجال الفضاء ، بعد أن كانت معرفته قاصرة على النظر والملاحظة .. أو باعادة الاختبار فى مجال اتضح أن النتائج العلمية فيه تحتاج الى مراجعة من جديد . اذ بعد مرور زمن على الاختبارات السابقة ، كشف عن نقص فيها يحول دون اعتبار تلك النتائج قانونا علميا صالحا للتطبيق العام . وذلك كمجال الطب على الخصوص .. وكمجال الكيمياء الصناعية .

والسؤال الآن : هل يصل الانسان فى علمه .. الى يقين .. والى قوانين علمية تطلب الاعتبار العام والصلاحية الأزلية للتطبيق ؟ .. على معنى : أن تطبيقها لا يترتب عليه ضرر أو خطأ ما ؟ .

ان الانسان متطور ، ومتغير فى الوقت نفسه . وتغيره يحد من تطوره ، ويحول دون أن يصل فيه الى نهاية معينة .. تغير الانسان ، سيحول دون كماله .. فلن يصل علمه الى يقين تام .. ولا الى احاطة تامة بالوجود ، وبنفسه ، وحياته . اذ اليقين فى العلم والاحاطة فيه .. أمارة الكمال فى الوجود ، وفى الطبيعة التى يجلها .. ومن هنا لم ينشد « كونت » .. الاعتبار العام للعلم .. وانما استهدف فحسب : **النسبية** فيه .

... ان تغير الانسان من وضع الى وضع مقابل .. ومن حال الى حال مغايرة فى عواطفه ، وفى تفكيره ، وفى عزمه وارادته ، وفى بدنه ، ومن صحة الى مرض ، ومن جوع الى شبع ، ومن عطش الى رى ، ومن رغبة الى عزوف ، وبالعكس .. يجعل التجربة التى يعيش معها ناقصة .. ويجعل مقياس الاختبار الذى بيده مهزوزا .

ولولا التطور ، كقانون ايضا لحياة الانسان .. ولولا تعدد المحاولات العلمية والنجاح فيها مرة والاخفاق مرة أخرى .. لوقف التغير بالانسان عن أن يتقدم فى علمه ، وفى كل ما له من انتاج .

وهكذا يعيش الانسان بين مبدأين يخضع لهما فى حياته : مبدأ التطور ، ومبدأ التغير . والتطور فى ذاته انتقال ويصحبه تغير فى الملامح . ولكن التغير المقصود هنا هو التأرجح أو التردد بين نقيضين فى حياة الانسان ..

وكما قيل قديما : ان كمال الناقص محدود ، وبلوغ الصائر الى نهاية صيرورته محدود ايضا . ومن ثم يستحيل أن يصل الانسان الى كمال مطلق ، والى عقل خالص .. لا يختلط به دفع غريزة .. ولا أثر من آثار حيوانيته .

.. والعلم لا يكون الضمير :

وان تقدم العلم لا شك يفيد الانسان فى جوانب حياته المختلفة ... انه ييسر له مصاعبها ويكشف له المجهول منها .. انه يستطيع أن ينفذ الى أصل المادة ويفجر الذرة ويركب الهواء ، ويقتحم الفضاء ، وقد استطاع أن يفعل كل ذلك .

وهو بصدد وضع الخطوط لاختبار مجال لحياة الانسان فى الكواكب الأخرى .. كما استطاع فعلا أن يستغل قاع المحيطات ، ويستعمر الصحراء ، وينزح ما فى جوف الأرض من ثروات على أعماق ، لم يتصورها الانسان من قبل ... وفى أخلاط كان يعز تمييزها فيما مضى .. من أجل حياة الانسان .. ورفعا لمستواه .. ومواجهة لنمو عدد السكان ..

ان العلم يستطيع أن يخضع جوانب الحياة المادية كلها للبحث والاستنتاج التجريبى ... ويستطيع كذلك بتقدمه فى الصناعة .. أن يجعل من وسائل الاعلام أدوات للتعبئة النفسية ، ودفع الرأى الجماهيرى الى اتجاه معين فى السياسة ... أو الاعتقاد فى عظمة زعيم من زعماء السياسة .. أو فى حشد هذا الرأى العام فى حرب باردة ، أو ساخنة .. ضد ايديولوجية معينة .. ولمصلحة ايديولوجية خاصة .

ولكن هـذه التعبئة هى فورة حمـاس مؤقت ، سيسأل الانسـان نفسه ، بعد مضى قليل من الزمن عليها ، عن الهدف الخاص الذى سيحصله من المشاركة فى الاندفاع .. وذلك لأنها تعبئة من أجل الحياة المادية التى يعيش فيها الانسان فى حاضره . وهى حياة مكشوفة الجوانب .. أو يمكن أن تكشف فى يسر وفى وقت قصير .

... وبالتالى تنكشف حقيقة الأمانى والآمال التى ارتبطت بهـذه التعبئة ، ويصبح الكثير منها لا مدلول له فى الواقع .. وهنا يفتر الحماس السـابق .. وقد يتحول مجراه الى الضـد تماما من أهداف التعبئة السابقة ..

وشأن الحماس المؤقت لا يكون قوة نفسية فى الانسـان ، يطول أجلهـا معه فى دفعـه نحو أهداف معينة . ان العلم فتش عن **النفس** فى الانسان ، وعاش فى تفتيشه عنها : اما فيما وراء الطبيعة .. أو فى ظواهر السلوك المادية . ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يخضعها لتجربته المادية ..

والرياضة النفسية وحدها ، وهى تدريب النفس على السيطرة على مقع هـذه الحيـاة .. هى التى استطاعت أن تلتقى مع الروح ، وتختبر حقيقتها .. ولكن دون أن تستطيع التعبير عما وجدت لها من قوانين ..

والعلم المعاصر لا يرى الرياضة النفسية وسيلة من وسـائل تجـاربه .. لأنه آمن بالطبيعة المادية وحدها .. وآمن بالوسـائل التى تستخدم عادة فى الكشف عن هذه الطبيعة ..

... ومن هنا لم يستطع العلم الحديث أن يوجد حتى الآن القـوة الذاتية فى نفس الانسان ، وهى ما نسميها بالضمير .. ويستحيل عليـه كذلك أن يوجد هذه القوة ، للتناقض بين ما يأتى به هو .. والجو الذى تنشأ هى فيه .

... العلم من طبيعته : الكشف ، والجو الذى ينشىء الضمير من طبيعته : أن يكتنفه الغموض وعدم التحديد . اذ دفع القوة النفسية التى نسميها الضمير ... مرتبط بأمل . فكلما كان الأمل محدودا ومكشوفا .. كلما عرف على حقيقته . والوقوف على حقيقة الشىء لا يطول معه تعلق النفس بذلك الشىء .. ومن ثم يفتر توجيه النفس نحوه بعد فترة .. أو يتلاشى هذا التوجيه أصلا ..

والعكس : كلما كان الأمل مما لا تصل النفس الى طبيعته ، وتظل فى دائرة التصور المحبوب له .. كلما زاد تعلق النفس به .. وكلما ، بالتالى : استمر فى التطلع اليه والاندفاع نحو تحقيقه .

وتطبيقا لذلك : كل أمل ارتبط بشيء مادى ينتهى بانتهاء الحصول عليه اذ الحصـــول عليه يتضمن نهاية العلم به .. وينتهى الدفع نحوه ، ولا تتكون من أجل ذلك قوة نفسية تستمر فى دفعها .. وانما الذى ينشأ من هذا الأمل .. هو حماس .. وانفعال مؤقت ..

... وكل أمل ارتبط بشيء معنوى ، كأن يرتبط بتحقيق قيم عليا ، أو برضاء الله ، طال أمده بطول حياة الانسان ... وتحول الحماس النفسى المؤقت من أجل طول الأمد الى قوة نفسية دافعة ، مستمرة فى دفعها .. وعرفت هذه القوة عندئذ بالضمير . اذ القيم العليا هنا لا يعرف تحققها فى وقت معين . ومن ثم فالعلم بها لم ينكشف تماما . ورضاء الله لا يعرف كنهه ، لأنه مرتبط بذاته ... وان كان يتصور . ومن ثم أيضا : فهو غير محدود .. وان كان معشوقا .

والأمور المعنوية . ليست موضوعا للعلم الحديث .. ولا يؤمن هو بها كذلك . ومن ثم : فالعلم لا يحدث ضميرا .. وان الذى يحدثه .. هو دين الله .

... العلم الحديث يخاصم المعنويات والمعتقدات القلبية ، وينكـــر لذلك الدار الآخرة وما يجرى فيها .. ويعتبر الحديث عن دار آخرة .. هو حديث عن خرافة .. وكذلك الحديث عن قيم ومثل عليا .. هو حديث عن خداع !

ودين الله يوم طرح الدار الآخرة للايمان بها ، وجعلها مرحلة ثانية وأخيرة لحياة الانســـان ، ووصـــفها بانها : مرحلة الاستقرار ، والأمن والسلام ، بينما الدنيا : هى دار الكفاح من أجل الاستقرار والأمن والسلام ... يوم دعا الناس الى الايمان بذلك ... لم يكن كاذبا ، ولا خادعا . وانما كان أكثر عمقا وابلغ رشدا فى الوقوف على طبيعة الانسان .. وعلى طريق السلام فى حياته ..

ان العلم الحديث لا يستطيع أن يحقق العدل المادى ، والعلم الحديث هنا هو الاشتراكية العلمية : لأن العدل المادى اذا كان معادلة بين السكان والدخل القومى ، فليس فى استطاعة أى شيء أن يحافظ على هذه المعادلة فى كل وقت وفى كل ظرف . واذا تعلقت النفوس جميعها بالخطوط المادية وحدها فستكون هنـــاك خيبة أمل لبعض ، وحقد عند بعض آخر ، وقلق مصـــحوب بعجز عند بعض ثالث ، واضـــطراب يدفع الى ثورة عند بعض رابع ، وهكذا ....

وآنئذ لا يكون هناك سلام ، ولا استقرار . فاذا جاء دين الله ووعد بالآخرة .. فلأنه يريد أن يخلق عن طريق هذا الايمان جو الهدوء وهو جو العمل .. ويريد أن يدرب النفوس على تقبل الحظوظ ، كما يتقبل لاعبو الكرة .. النصر والهزيمة بروح لا تجعل المنتصر مغرورا ، فقد ينهزم مستقبلا .. ولا المنهزم متشائما ويائسا ، فقد ينتصر غدا . وتلك روح لا تجعل الناس يديرون ظهورهم بعضهم لبعض ، وانما تجعلهم يلتقون ، ويتصافحون ، ويتعاونون على الخير والسلام .

ان دين الله يبغض التشاؤم ، ويدعو الى الأمل والتفاؤل ... انه بما يبصر به الناس فى قوله :

« فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا »(١) .

... يؤكد الأمل ، ويغلق باب التشاؤم .

... انه بما يقوله :

« يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى »(٢) .

... يوضح قانون الحياة الدائمة من تعاقب المتناقضات بعضها اثر بعض ، كصورة لا تختلف . وذلك مما يدفع اليأس .. ويفسح مجالا لتغيير الحظوظ بين الأفراد .

... وعلى فرض : انه ليست هناك آخرة ، وقد قالها قوم سابقون : على الاشتراكية الماركسية والاتجاه المادى التاريخى الديالكتى ، كما يحكى ذلك القرآن الكريم :

« ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »(٣) .

... ولم يكن لهم اذ ذاك من العلم .. حظ علماء اليوم ، وانما كانوا ذوى طفولة فى انسانيتهم .. وقفوا بها عند حد المحسوس وحده ... على فرض أنه ليست هناك آخرة .. وما ضرر الايمان بها ؟

قد يقال : انه ضرر التواكل ، والتواكل .. مصدر الكسل وعدم العمل !

---

(١) الشرح : ٥ ، ٦

(٢) آل عمران : ٢٧ بلفظ **« تولج »** ، **« وتخرج »** .

(٣) المؤمنون : ٣٧ .

ومن قال : ان التواكل ظاهرة دينية ؟ .. انه ظاهرة الانحراف عن الدين .

وقد يقال : انه ضرر السؤال ومذلته من أجل لقمة العيش ؟ والسؤال يتنافى مع كرامة الانسان ! .

ومن قال : أيضا : أن السؤال أمر دينى ... من لوازم الايمـــان بالدين ؟

.. ان الايمان بالآخرة مصدر دفع نحو العمل والانتاج .. وفى الوقت نفسه مبعث سلام فى حياة الانسان على هذه الأرض .. وعامل أساسى فى تكوين الضمير الانسانى .. واستدامة دفعه .

اذا لم تكن الانسانية فى حاجة الى ضمير ، فما أغناها عن دين الله ، ولتكتف بفلسفة العلم الخلقية ، وهى فلسفة النسبية فى القيم الأخلاقية .. بجانب اكتفائها بالاشتراكية العلمية فى تنظيم المجتمع وفى .. تنمية العلاقات المتبادلة بين افراده !

... وأن هى افتقرت الى ضمير فليس هناك من مصدر له .. الا دين الله رب السموات والأرض . **لأن العلم أبى الا أن يكون الانسان مادة .. تتبعها ظواهرها فيه .. كما تتبعها فى أية طبيعة أخرى .. وأبى أن يكون للقيم العليا وجود اصيل .. تتبعه آثاره سواء : فى تكون الضمير .. أو فى السلوك .**

ان العلم اذا استطاع أن يوفر للانسانية الخير المعنوى ، وهو السلام والاستقرار فى علاقات الأفراد والمجتمعات ، كما يستطيع أن يوفر لهـــا الرفاهية المادية بالصناعة والتقدم فى الآلية والتحكم فى الأرض والماء والجو .. فهو الاله يجب أن تتجه اليه الانسانية جميعها بعبادتها اياه فى محرابه ! .. بعد أن اتجه اليه من قبل أصحاب الفكر الوضعى ، وفلاسفة الاتجـــاه المادى ، من : فيرباخ ... الى ماركس .

... ولكن اذا كان يستحيل عليه أن يصنع ذلك .. فليس أمامه الا مصادقة دين الله فى توجيه البشرية . ويستحيل عليه أن يصنع ذلك . لأنه ليس أصلا يتبعه الانسان .. وانما الانسان صانعه وموجهه . ويعـــود الأمر من جديد الى : **الانســـان** . فان لم يكن مؤمنا بالانســـانية عن طريق أيمانه بالله .. فليس هناك ضمان لتوجيه العلم دائما نحو الخير العام .

« كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى »(١) .

... تلك طبيعة الانســـان . فان لم يكن له ايمـــان بجانب العلم ، لا يؤمن أن يكون العلم مصدر طغيان الانسان . ولن يستقر سلام فى مكان ما .. طالما هناك طغيان .

« والعصر . ان الانســـــان لفى خسر . الا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »(٢) .

وهذه سنة الحياة الانسانية التى لا تتغير ولا تتبدل ... ان ترك الانسان بعقله وغرائزه فقط ... لا يؤمن الا بذاته وطاقاته فحسب ... ان ترك ورغبته فى الاستقلال وغروره بخالقيته ... فحتما مصير أمره .. الخسران فى حياته .

فليس هناك خسران بعد القلق والخوف ... وبعد الحقد والنزاع ... وتلك هى نتائج الأنانية ، التى تدفع اليهـــا الغرائز بطبيعتهـــا ، فى مواجهة العقل المستضعف آنئذ .

... فان أضاف الانسان الى طاقاته الخاصة من غرائز وعقل .. توجبه دين الله : فآمن ، وعمل صالحا ، وتعاون على نصرة الحق دائما ، واستعان بالصبر فى مناصرته للحق ، وفى استقامته فى السلوك ، وفى ايمانه بالله ... لم يلحق به خسران ولا أذى .. وعاش فى هدوء وسلام ، وتجنب حيـــاة الحيوان ... فى نزاعها المستمر ، واضطرابها الذى لا ينتهى .

الانسان زود من طبيعته بسمع وبصر ، وعن طريقهما يفتح المجال لعمل العقل فى تفكيره .. وفى تحصيل معرفته .

... وبجانب السمع والبصر .. كان له القلب أو الفؤاد ، وهو مكان الايمان . فان تركه خاليا .. فليس هو مباشر لجميع طاقاته .

وهنا يكون القصور فى تنمية جوانب انسانيته . ويستحيل عليه وقتئذ أن يصل الى هدف انسانيته .. فى نفسه .. وفى مجتمعه .

وأولى به لهذا .. ألا يقف بتطوير نفسه عند بعض من جوانبه .. مهملا البعض الآخر منه .. ان ذلك ليس الحكمة فى التفكير .. وليس اليقين فى المعرفة .. وليس الكمال فى الوجود الخاص به .

... انه الانسان .. فى تطوره .

... وسيظل متطورا .. ولكنه لن يصل الى نهاية هذا التطور ... وحده ، وبغير هداية الله .

* * *

(١) العلق : ٦ ، ٧ (٢) سورة العصر .